تعادلها زهواً وبهاء ، وتساويها فى النظر اليها بسرور وارتياح !!!

* * *

هكذا نهاية المجد الانسانى ! وقليلاً ما تستطيع الدنيا القيام به لأعظم من يلجونها ! بل ولأعظم قدر يصل اليه هؤلاء الرجال . . ! !

فما وظيفة الحياة إذاً ؟ وما أثر العظماء الذين يمرون على مسرح الدنيا فى حلل النصر كهؤلاء الذين ندعوهم « أبطالاً » ؟ ؟ أهو أن يكبروا وينفخوا فى بوق الشهرة ويشغلوا صفحات كثيرة من التاريخ ؟ ؟ والأسفاه ! ! ليس هذا بأكثر من وضع قصة يقرأها الخلف فيما بعد ويصورها خرافة ورواية ! ! أم هو أن يقدموا للشعراء موضوعا يعيشون به فى أشعارهم الخالدة كما يدعون ؟ ؟ وذاك أيضاً سيؤول بهم إلى قصة شعرية يتلوها العجائز لأسكات الأطفال ، أو لجمع مساعدة للفقراء والمساكين على قارعة الطريق . . !

أم أن أثرهم هو أن يضيفوا الفضيلة والتقوى لمجدهم ؛ وهما العنصران اللذان يأخذان بهم إلى النعيم ويجعلانهم حقاً خالدين ؟ ؟ وما المجد من غير فضيلة ؟ ؟

ليس العظيم من غير تقوى بأكثر من دابة ضخمة من غير نفس !

ثم ما الشرف بغير قدر واستحقاق ؟ ؟

وماذا يمكن أن يدعى قدراً حقيقياً غير ما يجعل الشخص تقياً كما هو عظيم ؟ ؟

إنا إذا كنا نؤمن بحالة مستقبلة للحياة ، بمكان يكافأ فيه الفضلاء ، ويعاقب بين جدرانه السفلة ، فكم من الرؤوس المتوجة سيلبس تاج السعادة والخلد ؟ ؟

لا يحسدن أحد « العظماء وذوى المجد » كما نسميهم ! !

فانا إذا استطعنا الآن أن نراهم وجدنا أكثرهم يستحق الرثاء لا التهنئة ! ! ؟

هذه الخطرات القليلة أبعثها اليك ياسيدى لتهيئ عقول قرائك قبل أن يذهبوا لمشاهدة الجناز الفخم للطيب الذكر « دوق مارلبرو » . . . . ؟

ترجمة محمد حسين ظاظا

الأدب بين الخاصة والعامة

لامرتين ورينه جارد

للسيد اسكندر كرباج

فى عام ١٨٤٦ قصد الشاعر الفرنسى لامرتين إلى مرسيليا لقضاء بضعة أسابيع فى أحد أحيائها الهادئة ، بعيداً عن متاعب السياسة وضوضائها ، وكان لامرتين وقتئذ فى أوج مجده الأدبى وعظمته السياسية ؛ فاحتفت به أندية العلم والاجتماع فى تلك المدينة البحرية ، وأكرمه الأدباء والشعراء ، ونظموا فيه القصائد البليغة

وفى ذات يوم ذهب لامرتين وزوجه للنزهة على ساحل البحر ، فلما عاد مساء قيل له إن فى الرواق المطل على الحديقة امرأة وضيعة الهيئة بسيطة الهندام تنتظر رجوعه منذ الصباح . فتوجه لامرتين إلى الرواق المذكور ليرى تلك المرأة الغريبة ويقف على حقيقة أمرها ؛ وبعد أن يشاهدها ويحدثها ويصف ملامحها ونظراتها واشاراتها بتلك الرقة الساحرة وذاك البيان الخلاب الذى اشتهر به مؤلف رواية غرازيلا ورفائيل يسألها عن الغرض من قدومها لزيارته ، فتجيبه أنها خياطة فى اكس ، وقد قرأت رواياته ومنظوماته ، وأعجبت بجمال تعابيره ورقة شعوره وسمو خياله ، فلما اطلعت فى الصحف على خبر قدومه إلى مرسيليا واحتفاء دوائرها الأدبية به تولدت فى نفسها رغبة التعرف به والتحدث اليه ، وانها على الرغم من فقرها وخمولها تجرأت على ترك عملها والقدوم سرا الى مرسيليا تحقيقا لرغبتها

فيتودد اليها لامرتين ويلاطفها ويقول لها انه يشك فى أنها تركت عملها وتحملت مشاق السفر يومين كاملين ، وقضت معظم النهار فى انتظار رجوعه من نزهته لكى تراه وتحدثه وتتعرف اليه فقط ؛ بل يجب أن يكون هنالك سبب آخر لقدومها لا تريد ذكره ، أو إنها لا تجرؤ على التصريح به ، ولذلك فهو يسألها أن تخاطبه بحرية وتبوح له بما فى قلبها من غير تكلف

فتفقد هى إذ ذاك شيئاً من خجلها واضطرابها ، وتخبره أن فى اكس أسرة كريمة تعرف شدة ميلها إلى المطالعة وعجزها عن شراء الكتب فتعيرها ما تقتنيه منها ، فاستطاعت بذلك أن تطالع

دا كبيراً من الروايات النفيسة والمنظومات الرقيعة ولاسيما رواياته نظوماته التي تطرب المسامع ، وتحرك القلوب ، وتستذرف الدموع

فيقاطعها لامرتين مبتسما : عرفت الآن ! إنك شاعرة كالنسمات تي تهبُّ بين أشجار الزيتون ، أو كالندى الذي يبلل أثمار التين !

فتجيبه : لستُ شيئاً من ذلك ياسيدي ؛ إني خياطة وضيعة أبرح غرفة عملي إلا نادرا ، وساوتي الوحيدة الدرس والمطالعة ، ليس يؤنسني في وحشتي وانفرادي إلا عصفور غرِّيد ، ولكن هذا كله لا يهمك أمره ، لقد سألتني عن سبب قدومي إلى مرسيليا وكيف عرفت بقدومك اليها ، فأجيبك أني قرأت منذ أيام في صحف هذه المدينة أبياتاً من الشعر الرقيق ليوسف أوتران في مدح لامرتين والترحيب به ، فشوقتني هذه الأبيات إلى رؤية الشخص الذي أوحى إلى شاعر مقاطعتنا نظم تلك الأبيات الجميلة ، وبتُّ لا أستطيع صبراً على ذلك . وبعد وثوق من وجودك هنا قدمتُ لزيارتك دون أن أهتم بملبسي أو بغيره مما يجعلني أهلا للمثول في حضرة رجل مثلك ؛ وهأنا أمامك الآن لا أدري ماذ أقول ولا ماذا أفعل ، وربما حملتك حالتي هذه على الاعتقاد بأني امرأة جسور مغامرة أتت تخدعك وتدعي ما ليس فيها ، مع أن الحقيقة هي ما أوردته لك بالتمام ، وبعد أن شاهدتك وعرفتك وحدثتك وحظوت منك بهذا الاستقبال اللطيف سأعود إلى قريتي حاملة أجمل ذكرى لهذه الزيارة .

فيقول لها لامرتين : خفي عنك أيتها الآنسة ! لم يمر في خاطري قط أنك لست كما تذكرين ، فملامحك أنصع دليل على صدقك وسلامة طويتك ، وإذا كانت الألسنة تخدع أحياناً فالعيون لا تضلل أبداً ؛ ففي عينيك بريق يشفُّ عن براءة ونقاوة لا يمكن أن تكونا برقعاً لامرأة كاذبة غامة . إن الطبيعة لم تخلق الملامح كذوبة ، فأنا أثق بك كما لو كنت أعرفك منذ الصغر ، ولذلك لا أسمح لك بالانصراف ما لم تحدثيني طويلاً وتشاركيني في العشاء ؛ لقد ذهبت زوجتي لتغيير ثوبها ولا تلبث أن تأتي لاستقبالك والقيام بواجب الضيافة نحوك . وقبل أن يحين وقت العشاء أخبريني كيف تولد فيك هذا الميل إلى المطالعة ، وهذا الهيام الشديد بالشعر والشعراء ، والتعرف إلى الأدباء الذين طالعت رواياتهم

فتروي له قصتها قائلة : إسمي رينه جارد ، وقد وُلدت في قرية قريبة من إكس ، ودخلتُ صغيرة في خدمة السيدة ... ورافقت نشوء الأولاد ، ونعمت بعطف الأبوين وصداقة الصبايا ، وكنت أصغي إلى ما يتعلمنه على الأساتذة وأطالع كتبهن في أوقات الفراغ ، فتوصلتُ بهذه الواسطة إلى تحصيل بعض العلوم ومعرفة القراءة والكتابة والخياطة والغسل والكيّ وغيرها مما تحتاج إليه الفتاة ويكلفها تعلمه نفقات كبيرة . وكنت أتولى خياطة ثيابهنّ ، وأعدهن لحضور الحفلات في إكس ، وأنتظر رجوعهن من المراقص حتى الساعة الثانية والثالثة بعد نصف الليل ، ومكافأة لي على ذلك كن يدفعن إلى كتاباً أو رواية لكي أطالعها في غيابهن ؛ فكنت أجلس بها إلى جانب الموقد وآخذ في مطالعتها مرتين وثلاثاً ولا أتركها من يدي إلا بعد أن أكون قد استوعبت معانيها جيداً ؛ وهكذا طالعتُ قصة المسكينة لورانس في روايتك الشعرية جوسلين ، وقد قلت لنفسي وقتئذٍ : هل يسعدني الحظ برؤية كاتبها ومحادثته ؟ لا ريب أنك تعرف أنشودة البحري التي مطلعها : من هو ناظم النشيد ؟

فيجيبها لامرتين : نعم أعرف تلك الأنشودة التي يضع ناظمها اسمه تحت آخر بيت منها كما كان فنيلون يضع اسمه على قاعدة تماثيله ، وڤانديك في ذيل رسومه لكي يخلد بخلودها . ولكن أخبريني كيف انفصلت عن تلك الأسرة الكريمة ، وأي عمل تمارسين الآن ؟

فتقول له رينه : بعد أن تزوج البنات وتوفيت الأم لم يعد من حاجة إلى بقائي في البيت ، فغادرته على ألا أدخل في خدمة غيره ؛ وقد ساعدني الأب بمبلغ من المال على تدبير أموري ، وقال لي البنات : اطمئني فلن تحوجك إلى الاستجداء

وكنت محبوبة معتبرة في بيئتي ، فاستأجرت حانوتاً تعلوه غرفة صغيرة للنوم ، وانصرفت إلى احتراف الخياطة ، ولكثرة الاقبال عليّ كدت لا أستطيع تلبية الجميع ؛ وأنا أعيش اليوم من إربتي ، وما يفيض عن نفقاتي أختزنه ليوم الضيق أو لأيام شيخوختي . وكانت لي عصفورة تسليني في وحدتي ففقدتها وحزنت عليها كثيرا ، وأنا أخصص أيام الآحاد والأعياد للمطالعة . وفي المدينة أشخاص من الطبقة العالية مثلك ، وعلماء وأدباء حتى وبعض أعضاء المجمع العلمي يعرفون ميلي إلى المطالعة والنظم في بعض الحفلات ، فلا يخجلون من دخول محلي ومحادثتي واعارتي بعض الكتب

فيقول لها لامرتين مبتسما : أتنظمين الشعر أيضاً يا رينه ؟ كدت استشف ذلك من عينيك الحالتين ، إذ لا سماء بدون غيوم ، والأحلام والنظم هى غيوم تينك العينين الجميلتين ؛ ولكن هلمى بنا ، لقد هجرت أنا النظم ، ولكنى لم أزل أحن إلى سماع رنانه والاستمتاع بروائع صوره ومعانيه . فما أجمل زمن النظم ! وما أشد شوقنا اليه ! هل تتذكرين يا رينه شيئاً من نظمك فتسمعينى إياه ؟ انظرى ما أبدع هذا المكان وألطفه لانشاد الشعر ! فالشمس على وشك المغيب ، والبحر يحمل إلى مسمعنا هدير أمواجه وخشخشة أصدافه التى هى أشبه بغناء صغيرة تضرب على الصنج ، والنسيم يداعب أشجار الليمون وينثر أزهارها العذرية على شعرك الأسود ، وأنا ، هذا الغريب الذى كان شاعرا فيما غبر من الأيام ويجلس وحيداً أمامك ليسمعك وقد أعجب بنبرات صوتك ، ألا يساوى كل هذا فى نظرك جمهوراً من السامعين حتى ولو كانوا من أعضاء المجمع العلمى ؟

فتجيبه رينه : لا جرأة لى على ذلك ياسيدى ، ولكننى أحتفظ بمقاطيع من الشعر كنت قد نظمتها فى إحدى ساعات كآبتى ، فأفضل أن تقرأها أنت من أن ألقيها أنا على مسامعك . ثم تخرج من جيبها بضع أوراق وتدفعها اليه

فيأخذها لامرتين ويقرأها لنفسه ؛ وكانت هى فى أثناء ذلك تمسح وجهها بحزمها وتحول نظرها عن وجه لامرتين مخافة أن تقرأ فيه ما يدل على استهجانه

ثم يصف لامرتين تأثير تلك القراءة فى نفسه فيقول له :

لقد أعجبت وتأثرت جداً بما قرأت ، انه التعبير الساذج اللطيف المؤثر بكل قوته ومعانيه ، بل خلجات قلب هادئة تصل الى السامع بصورة شجية متناسقة ، بل صورة ملامحها المتواضعة التقية اللطيفة بكل خطوطها وعلاماتها ؛ وبكلمة واحدة ، انه شعر حقيق لامرأة تحاول التعبير عن عواطفها بالضرب على أوتار آلة تجهلها

لم تكن الأبيات التى طالعتها شديدة أو رنانة كشعر راول ، ولا حماسية وهاجة ، أو ندية فضفاضة كالياسمين ، بل كانت هى نفسها : نغمة مملة كئيبة تنشدها عاملة فقيرة لنفسها وهى تحرك أناملها أمام نافذة غرفتها لكى تخفف تعبها من عمل الابرة

كان فى الأبيات نغمات حادة تجرح القلب ، وأخرى لا تحتوى إلا نبرات غامضة لا تلفظ كأن التنفس وقف فى منتصف الاستنشاق ، غير ان هذا كان قوياً وتاماً ومتغلغلاً حتى القلب وحتى السماء ؛ وكان التأثر فيها يفوق الاعجاب . وعلى الجملة أنها الشعر فى حالة التكوين ، الشعر الذهبى كما هو فى كل مكان حيث يبتدى فى الشعب ولو خلا من صوت الفن ، ان نغمة واحدة مملة كئيبة ؛ وقصة تتألف من حادث أو حادثين ، وسبع أو ثمانى صور كافية للتعبير عن اللانهاية !

ثم يرجع لها الأوراق قائلاً : إن فى منظوماتها أشياء خلابة وأن الله منحها موهبتين ساميتين : الشعور بدقة ، والتعبير بظرف ؛ وهما موهبتا المواهب ، أو موهبة الدموع فى الصوت ، ولكنه أبعد من أن يشير عليها بنشر تلك المنظومات التى هى مثل المياه لا تستعذب الا اذا نهلت من ينبوعها

فتجيبه رينه : ماذا تقول ياسيدى ؟ انى لم أفكر قط فى أمر كهذا ، إن اقدامى على نشر الكتب يحمل حتى ملاكى الحارس على السخرية بى . لقد نظمت ما قرأته الآن يوم الأحد الأخير على سبيل التسلية فقط ، ولا أحد يعلم به فى الكس . ومتى كان الانسان يعيش وحيداً مثلى يضطر الى التكلم عالياً كى يستوثق من وجوده ، فالمنظومات التى قرأتها هى مناجاتى لنفسى

(العصبة)

اسكندر كرباج
من العصبة الأندلسية

أصدرت مكتبة الجيب

رجـــل

قصة شاب تطورت رغباته مع تطور غريزته
فأحب وتعذب وقاسى ولكنه كان ... رجلاً

لمحمود البـــدوى

وتطلب من مكاتب القاهرة الكبرى
ومن المؤلف رقم ١٠ شارع الأمير
بشـــير الحلمية الجديدة مصر

وثمنها قرشان